

الدوار وقبول الأثر في ضوء الكندي النبوي

د. بن يحيى الطاهر ناعوس



الحوار وقبول الآخر في

ضوء الهدى النبوي

المجتمع المدني في عهد النبوة أنموذجاً

إن الحديث عن الحوار في ضوء الهدى النبوي الشريف يقتضي منا أن ننظر فيما إذا كان الإسلام يقدم أنموذجاً أو تصوراً للحضارة. وهنا لا بد من استحضار أمرين: أولهما أن الحضارة التي أسسها المسلمون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم قامت على دعائم وأسس أهمها المعرفة التي جاء بها الإسلام، وهي معرفة ليست كما يقول خصوم المسلمين معرفة غيبية، ولكنها معرفة تقوم على التجريب والملموس، وعلى اختبار الأشياء. أما الأمور الغيبية فقد وردت في الإسلام بشكل محلول، حتى لا يضيع فيها جهد الفكر الإسلامي.

ثاني الأمرين هو اعتماد الحضارة الإسلامية على مبادئ وقيم يمكن أن نجملها في مبدأ "التقوى"، لأنها تتضمن جملة من القيم عليها تقوم الحضارة وتتشيد الثقافة ويتحقق التقدم العلمي، من موضوعية ونزاهة فكرية وإخلاص وابتعاد عن الأهواء والشهوات.

ومن أسسها: الشمولية والتكامل؛ لأنها لم تكن أحادية منغلقة، وإنما كانت تمس مختلف جوانب الإنسان ومتطلبات الحياة الإنسانية من أمور مادية وأمور روحية، فردية واجتماعية..

تجرنا هذه النظرة الشمولية إلى تبين دعامة أخرى في الحضارة الإسلامية كما أقامها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي التفتح الذي عرفه المسلمون في عهودهم الأولى المزدهرة.

يبدأ هذا التفتح من التقارب بين الأجناس، وعدم التعصب لجنس معين، ونعرف أنه في الإسلام لا فرق بين عجمي وعربي إلا بالتقوى، ولا فرق بين زيد وعمرو إلا بالمقومات التي جاء بها الإسلام ودعا إليها؛ وما سوى ذلك فإنه لا يوجد ما يمكن أن يشار إليه بالتعصب أو التطرف.

لقد كان التفتح على الآخر من أسس ازدهار الحضارة الإسلامية، وأكبر مظهر له هو إقبال المسلمين على العلوم وترجمتها، ولم يتركوا إلا ما كان في ذهنهم أنهم متفوقون فيه مثل الشعر، لكن ما سوى ذلك، كمجال العلوم والفنون، فقد عنوا به ونقلوه دون أدنى شعور بالنقص أو الحرج.

يمكن أن نضيف في إطار دعائم الحضارة الإسلامية: الاستقرار بكل جوانبه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهو الذي كان خلف هذا الازدهار الذي عرفته أمة الإسلام في عهدها الأولى، والذي نتجت عنه مظاهر التقدم والرفي.

هنا لا بد من طرح سؤال محوري، هل كانت هذه الحضارة وليدة المصادفة؟ أم كانت وليدة منظور ثابت ومستوف لكل الشروط التي جاء بها الإسلام؟ ونحن نعلم بأنها كانت وليدة منظور يقوم على مقومات ثلاثة:

- المقوم الأول: هو الإيمان.
- المقوم الثاني: هو الدعوة إلى العمل. وحين نقول العمل نعني أيضا الانتاج والابتكار والإبداع.

- المقوم الثالث: هو التواصل مع الآخر؛ **{وَالْعَصْرِ [١] إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ [٢] إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ }** [العصر: ١ - ٣].

نجد أنفسنا مضطرين للوقوف عند هذا المقوم الثالث الذي هو التواصل، من خلال التواصي بالحق والصبر. ومن خلال قوله تعالى: **{ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم}** [سورة الروم: ٢٢].

لماذا يدعو الإسلام إلى التواصل أو الحوار؟ وكيف طبقه النبي صلى الله عليه وسلم؟

المنهجية النبوية في الحوار وقبول الآخر:

الحوار كلمة قرآنية مباركة وردت كثيراً في القرآن الكريم، قال تعالى: **{قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ}** [الكهف: ٣٧]، **{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا}** [المجادلة: ١].

والصحابة درجوا على محاوره الرسول صلى الله عليه وسلم في قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية وطبيعية وتاريخية وعقائدية، كما ورد أنه لما جاء نعي النجاشي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صلوا عليه"، قالوا: يا رسول الله نصلي على عبد حبشي؟ فأنزل الله: **{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }** [آل عمران: ١٩٩]؛ رواه النسائي.

فكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه بالحوار المتصل، فالحوار كما هو معلوم ينشط العقل ويحرك الذهن، ويحفز القابلية للتعلم ومتابعة الترقيات الروحية والفكرية، والعقل نقيض العقل المتعصب؛ فالعقل المحاور يترقى بصاحبه إلى أفق العلماء، بينما العقل المتعصب يقعد بصاحبه عن زمرة العلماء.

١. أنماذج من حواراته صلى الله عليه وسلم:

و سنورد في البداية جملة من الحوارات النبوية ثم نرسم من خلالها صورة واضحة عن خصائص الحوار وقبول الآخر عند النبي صلى الله عليه وسلم:

٢. قصة إسلام عمرو بن عبسة السلمي:

يقول عمرو بن عبسة السلمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلي فقدمت عليه، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً جراء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: "أنا نبي" فقلت: وما نبي؟ قال: "أرسلني الله" فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: "أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يُشرك به شيء" قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: "حر وعبد" قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به فقلت: إني متبعك قال: "إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني".

قال فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أتخير الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم عليّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت المدينة فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: "نعم، أنت الذي لقيتني بمكة".

وذكر بقية الحديث وفيه أنه سأله عن الصلاة والوضوء ١.

٣. قصه إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه:

كان أبو ذر رضي الله عنه منكرًا لحال الجاهلية، ويأبى عبادة الأصنام، وينكر على من يشرك بالله، وكان يصلي لله قبل إسلامه بثلاث سنوات، دون أن يخص قبلة بعينها بالتوجه، ويظهر أنه كان على نهج الأحناف، ولما سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم قدم إلى مكة وكره أن يسأل عنه حتى أدركه الليل،

١- ينظر: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين. رقم ٨٣٢.

فاضطجع فرآه علي رضي الله عنه فعرف أنه غريب فاستضافه ولم يسأله عن شيء، ثم غادره صباحاً إلى المسجد الحرام فمكث حتى أمسى، فرآه علي فاستضافه لليلة ثانية، وحدث مثل ذلك في الليلة الثالثة، ثم سأله عن سبب قدومه، فلما استوثق منه أبو ذر أخبره بأنه يريد مقابلة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له علي: فإنه حق وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني، فتبعه وقابل الرسول صلى الله عليه وسلم واستمع إلى قوله فأسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري" فقال: والذي نفسي بيده لأصرخن بما بين ظهرائهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وثار القوم حتى أضجعوه، فأتى العباس بن عبد المطلب فحذرهم من انتقام غفار، والتعرض لتجارهم التي تمر بديارهم إلى الشام، فأنقذه منهم ٢. وكان أبو ذر قبل مجيئه قد أرسل أخاه، ليعلم له علم النبي صلى الله عليه وسلم ويسمع من قوله ثم يأتيه، فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني ٣ مما أردت ٤ وعزم على الذهاب بنفسه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخوه له: "وكن على حذر من أهل مكة فإنهم قد شنفوا له وتجهموا" ٥.

٤. حوار أبي سفيان مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه:

قال البراء رضي الله عنه: وأشرف أبو سفيان فقال أفي القوم محمد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء القوم قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر رضي الله عنه نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اعل هبل ٦، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أجيبوه»، قال: قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل»، قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني ٧. وفي رواية

٢- صحيح البخاري (فتح الباري) (١٧٣/٧).

٣- ما شفيتني مما أردت: ما بلغني غرضي وأزلت عني همي.

٤- صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، ص ٨٣.

٥- صحيح مسلم (١٩٢٣/٤) وشفوا له: أي أبغضوه، وينظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١٤٥/١).

٦- اعل هبل: ظهر دينك.

٧- البخاري، المغازي، رقم ٤٠٤٣، السيرة النبوية الصحيحة (٣٩٢/٢).

قال عمر: [لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاككم في النار] ٨.

كان في سؤال أبي سفيان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر دلالة واضحة على اهتمام المشركين بهؤلاء دون غيرهم؛ لأنه في علمهم أنهم أهل الإسلام وبهم قام صرحه وأركان دولته وأعمدة نظامه، ففي موتهم يعتقد المشركون أنه لا يقوم الإسلام بعدهم. وكان السكوت عن إجابة أبي سفيان أولاً تصغيراً له حتى إذا انتشى وملاه الكبر أخبروه بحقيقة الأمر، وردوا عليه بشجاعة ٩.

وفي هذا يقول ابن القيم في تعليقه على هذا الحوار: فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلته، وبشركه، تعظيماً للتوحيد. وإعلاماً بعزة من عبده المسلمون، وقوة جانبه، وأنه لا يغلب، ونحن حزبه وجنده. ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل روي أنه نهاهم عن إجابته، وقال: لا تجيبوه؛ لأن كلمهم لم يكن برد في طلب القوم، ونار غيظهم بعد متوقدة، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، حمي عمر بن الخطاب واشتد غضبه وقال: كذبت يا عدو الله، فكان في هذا الإعلام من الإذلال، والشجاعة وعدم الجبن، والتعرف إلى العدو في تلك الحال، ما يؤذيهم بقوة القوم وبسالتهم، وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا، وأنه وقومه جديرون بعدم الخوف منهم وقد أبقى الله لهم ما يسؤوهم منهم، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة بعد ظنه، وظن قومه أنهم قد أصيبوا من المصلحة، وغيظ العدو وحزبه، والفت في عضده ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحداً واحداً، فكان سؤاله عنهم ونعيمهم لقومه آخر سهام العدو كيده، فصبر له النبي صلى الله عليه وسلم حتى استوفى كيده، ثم انتدب له عمر فرد بسهام كيده عليه، وكان ترك الجواب عليه أحسن، وذكره ثانياً أحسن، وأيضاً فإن في ترك إجابته حين سأله عنهم إهانة له، وتصغيراً لشأنه، فلما منته نفسه موتهم، وظن أنهم قد قتلوا، وحصل له بذلك من الكبر والأشر ما حصل، كان في جوابه إهانة له، وتحقير وإذلال، ولم يكن هذا مخالفاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم «لا تجيبوه» فإن إنما نهي عن إجابته حين سأل: أفيكم محمد؟ أفيكم فلان؟ ولم ينه عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قتلوا، وبكل حال فلا أحسن من ترك إجابته أولاً، ولا أحسن من إجابته ثانياً ١٠

^٨- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٣٩٢).

^{١٠} ينظر: زاد المعاد (٣/٢٠٢، ٢٠٣).

.٥ بين الطائف وعدّاس:

لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن نالته منه في حياة عمه أبي طالب. فكان النبي صلى الله عليه وسلم يبحث عن الملجأ والملاذ. فخرج الرسول الله عليه وسلم، إلى الطائف يلتمس عند أهلها النصرة والمنعة. فجلس إلى بعض ساداتهم، فدعاهم إلى الله وكلمهم لما جاءهم له، من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه.

ولكن لم يصل حديثه إلى عقولهم، فقام من عندهم يائسا من خير فيهم، حيث رفضوا أن يلتزموا بأن يكتموا ما وقع بينه وبينهم، وأغروا به سفاهم، وكان هنا دعاؤه المشهور والدم يسيل منه والذي ورد فيه: "إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي..."، حتى تقاطعت طرفه مع غلام نصراني يقال له عدّاس، جاءه بقطف من العنب، فلما وضع الرسول صلى الله عليه وسلم يده فيه قال: "بسم الله"، ثم أكل، ثم نظر عدّاس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ومن أهل أي بلاد أنت يا عدّاس وما دينك؟" قال: نصراني وأنا رجل من أهل نينوى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرية الرجل الصالح يونس بن متى". فقال له عدّاس: وما يدريك بيونس بن متى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذلك أخي، كان نبيا وأنا نبي، فأكبّ عدّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه".

والشاهد استعداد الرسول للحوار، حتى وهو مغلوب على أمره والدم يسيل منه، لا يخرج من طوره ويتخير الألفاظ ويكسب العباد، فإنه هنا يكسب عبدا غلاما مغلوبا على أمره بالحوار ويخرج من الطائف وقد كسب صديقا وعضوا للصف المسلم، حينما أبرز له شيئا من علمه وسعته. فالحوار يتصل مع الأشراف والسادة والملوك والعبيد والمهمشين، لأنهم أمام الله سواء، وكذلك هم إخوة في الإنسانية، وكلهم يستحق الخلاص والوصل بالكلمة الطيبة "لا إله إلا الله".

.٦ مقتل كعب بن أسد القرظي:

جاء برئيس بني قريظة كعب بن أسد، وقبل أن يضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنقه جرى بينه وبين كعب الحوار التالي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كعب بن أسد؟". قال كعب بن أسد: نعم يا أبا القاسم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما انتفعتنم بنصح ابن خراش لكم، وكان مصدقا بي، أما أمركم باتباعي، وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟"، قال كعب: بلى والتوراة يا أبا

القاسم، ولولا أن تعيرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكني على دين يهود. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عنقه فضربت ١١.

و على ما سبق؛ يمكن القول بأن حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كانت سلسلة من الحوار المتصل؛ بل حتى مع ذاته ونفسه في غار حراء، ومع الملك جبريل عليه السلام بعد ذلك، ومع الملأ الأعلى، ومع زوجاته وبناته ومع أصحابه ومع المجتمع المعاكس وما به من أهل كتاب ومنافقين ومشركين ومع الحكام وقادة الجيوش.

واشتهرت مواقف حوارية بعينها من حوارات الرسول المتصلة، ومنها ما كان في بدء الدعوة، مرحلة الصدوع والجلوة بعد الخلوة والكتمان، مرحلة سعي المجتمع المعاكس في مكة لإجهاض مشروع الدعوة، عن طريق صفقة مع الداعية، لأن العقل المكي الجاهلي، كان أسلوب حياته يقوم على التجارة والصفقات والمبادلات وتقديم التنازلات، ولعل هذا الحوار وقع في السنة الخامسة للبعثة النبوية، حينما اكتشف المجتمع الجاهلي أنه أصبح حاملاً بمشروع جديد، وأن الرحم المكي بدأ يتسع لهذا المشروع، ولذلك اجتهدوا في سبل إجهاض الحمل ووأد المشروع، بصرف صاحب المشروع عن مشروعه وجره عن طريق اللجاج والمحاجة ليصبح شريكاً في إجهاض المشروع؛ حيث اجتمع عليه من أشرف قريش، وجلس إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك. لقد شتمت الآباء وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، وما بقي من قبيح إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رؤياً {أي جاناناً} تراه قد غلب عليك، بذلنا أموالنا في طلب الطب، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ١٢.

وكان هذا الكلام كافياً ليغضب النبي صلى الله عليه وسلم ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي فطر على السماحة وقبول الآخر والصبر عليه، حتى يكسبه ولو بعد حين، أجاب: "ما بي ما تقولون، ما جئتمكم بما جئتمكم به أطلب أموالكم، والشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا

١١- ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٠٩/٣).

١٢- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة (٣٩٧/٢).

مني ما جئتمكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم" ١٣.

وتوالت المحاولات والوساطات، والضغوط حتى استعانوا عليه بعمه أبي طالب حاميه وناصره، فقال قولته المشهورة: "يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته". ومع أنه لم يهجمهم أو يتهمهم عليهم أو يرميهم بما رموا به، وإنما لزم أدب الحوار من جانبه، ولكن مع ذلك لم يقدم أي تنازل في أمر الدعوة، واتسمت لهجته هذه المرة بالصرامة، لأنهم أرادوا الضغط لا الحوار، بإدخال عمه وجعله أداة ضغط، واستخدام الوسائل العاطفية والنفسية، فأراد أن يدفعهم عن ذلك، كما أراد أن يوجه رسالة قوية لعمه والمجتمع الجاهلي أن لا يخلطوا الأمور حتى لا يختلط الأمر وتضيع الحقيقة حينما يصبح الحوار مطية للابتزاز وممارسة الضغوط، حتى طار صواب أشرف قريش، بينما ظل هو مستجمعا لكيانه وقدراته، قادرا على إلحاق الهزيمة بهم ١٤.

وأصعبُ الهزائم الهزيمة العقلية والفكرية التي أداتها الحجّة، فبينما كان يخاطب العقل، أي عقول المشركين، كانوا هم مشغولين بنتائج عمله على الأرض قائلين: فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب.

والفارق بين منهج الرسول الكريم ومنهج خصومه من أشرف مكة أنهم ينطلقون من مصالح دنيوية وعقائد جاهلية، بينما هو ينطلق من "أدبني ربي فأحسن تأديبي" ١٥ ومن قول الباري سبحانه وتعالى: **{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}** [فصلت: ٣٤]، استشعار أن الآخر المخاصم هو ولي حميم، لا يكون إلا من صاحب خلق عظيم، وصاحب رسالة ارتكز في عقله ووجدانه أن الدعاء إلى الدين أعظم الطاعات وأجل الواجبات، ولا تستوي الأعمال الحسنة، ومن بينها أدب الحوار، ولا الأعمال القبيحة التي منها التعصب والجهل والغلظة، لذا المطلوب دفع الباطل بالحق، والجهل بالحلم والإساءة بالعفو.

لذا كان من لوازم صفات المسلم الحق كظم الغيظ واحتمال المكروه ومد حبال الصبر للآخر المحاور مهما خرج على قواعد الحوار، حيث المسلم الحق لا ينتهي إلى تصفية الحسابات بالتأثر أو الإساءة أو

^{١٣} - ينظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٣٩٨).

^{١٤} - ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٢١).

^{١٥} - رواه العسكري في الأمثال.

تحقيق انتصارات لإرواء غريزة الغلبة، إذ المسلم الحق ينبغي أن يكون صاحب النصيب الوافر من الرأي ورجحان العقل.

المنهاج النبوي في الحوار:

واستنباطا مما سبق؛ يمكن فهم منهج النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في الحوار، ومن مقارنة موقفه الصلب في بداية الدعوة وعدم تقديم تنازلات عقديّة مع التزامه بأدب الحوار والصبر والعمو والحلم، بموقفه في غزوة الحديبية بعد مرور اثني عشر عاما على موقفه الحوارى مع كفار مكة وأشرفها، حيث أصبح في موضع قوة وأصبح الزعيم على المجتمع والأمير والوالى، ولم يكن في حاجة لتقديم تنازلات، ولكنه قدم تنازلات ليس في صميم الدعوة أو مجمل الإطار الروحى، ولكن في قضايا تتصل بالظروف والأوضاع وشؤون الحرب والسلام وإدارة المنطقة وأداء المناسك.

وكان ذلك في غزوة الحديبية في السنة السابعة من الهجرة، حينما قصد أداء العمرة وأصبح هناك توازن عسكري بين دولة المدينة ودولة مكة، وتوترت المفاوضات واكفهر الجو؛ ليصبح جو حرب. وكفار مكة يمنعون النبي صلى الله عليه وسلم من دخول الحرم، والنبي الكريم لا يريد فرض منطق القوة مع ضغط الصحابة عليه، ويريد الوصول لأهدافه المصيرية والمرحلية بالحوار والحكمة.

وحكمة الرسول الكريم برزت في توظيفه للأسماء والمعاني كأدعية للحوار والفأل الحسن وكسب القلوب، فحينما بلغه استئذان رجل من قبيلة كنانة كوسيط، استمال الرسول الرجل قائلا لأصحابه: "هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها"، فبعثت له واستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت. وهكذا يؤسس الرسول الكريم لفتة كسب قلوب الآخرين.

ولكن أبرز الكتاب أو وثيقة العهد مرونة الرسول الكريم واستعداده للتنازلات المرحلية والعرضية، والتي إن بدت كتنازلات إلا أنها في الحقيقة فتحت الآفاق أمام حركة الدعوة الإسلامية المحاصرة، حيث جلبت الوثيقة السلام وأطلقت يد الجماعة المسلمة في حقل الدعوة باستثناء الحقل المكى. كما أن المعاهدة اعترفت لأول مرة بالكيان الجديد ككيان له حق الحياة والعيش المشترك وحرية الدعوة. ولذلك كان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مرّناً، ورفض أن يكون حرفياً أو أن يلزم خصومه بما يلزم به أصحابه، فلذلك دعا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وقال له: "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال سهيل: أما الرحمن فو الله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم. وهنا قال المسلمون والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اكتب باسمك

اللهم"١٦. والمعنى الجوهري واحد وهو التمجيد لله سبحانه وتعالى والإشهار أن الله شاهد وحاضر في المعاهدة. ولذلك تجاوز الرسول الكريم الاعتبارات الحرفية واللفظية.

ثم جاء التنازل الثاني والذي كان قاسيا على الصف المسلم، حتى رفض تلميذ الرسول صلى الله عليه وسلم وابنه النجيب علي رضي الله عنه الامتثال، وذلك حينما رفض سهيل جملةً "هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله" فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. والرسول المحاور المنطقي مع نفسه وأصحابه وجد أن كلام خصمه عين المنطق، لذلك كان رده سريعاً وحاسماً قائلاً: "إني لرسول الله وإن كذبتموني"، ثم قال لعلي رضي الله عنه: "أمح رسول الله"، فقال علي: يا رسول الله إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك. وهذا غاية الولاء والأدب والحب، بمعنى أن هيبة الرسول الكريم تغلغلت ذات علي وكيانه حتى ما عاد قادراً إلا على الدعاء للرسول والصلاة عليه وأن أعضائه تتمرد عليه فيما طلب منه، مما دعا الرسول الكريم للتدخل ليأخذ الوثيقة ويمحو المطلوب.

وبذلك وبهذه الثقة والسعة دخلا، أي الرسول الكريم والوسيط سهيل، على القضايا الجوهريّة وأهمها:

أولاً: اصطلاحاً على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض...

ثانياً: وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله.

ثالثاً: ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام فهو آمن على دمه وماله وأن بيننا عيبة مكفولة وأنه لا إسلال ولا أغلال.

رابعاً: وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، وأن من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

خامساً: وأن يعود محمد وأصحابه ليطوفوا في البيت العام المقبل لقيموا به ثلاثاً، ثم ختم العهد باستدراك من سهيل أصبح الشرط الأقسى في المعاهد: سادساً: فقال سهيل: على أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ومن جاءنا ممن معك لم نردده١٧.

١٦- رواه البخاري ٢٧٣١.

١٧- ينظر: المجتمع المدني للعمرى، ص ١٢٥.

و أو شك هذا الشرط الذي قبَّله الرسول صلى الله عليه وسلم أن يُوقع فتنة في الصف المسلم، فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً، فقال صلى الله عليه وسلم: "من جاءهم منا فأبعده الله، ومن جاءنا منهم رددناه إليهم، فلو علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجاً".

وكادت أن تقع الفتنة في مراسم التوقيع حينما جاء أبو جندل يرسف في أغلاله، ورمى بنفسه بين أظهر المسلمين. وحاوِر الرسول أشرف مكة في شأنه وحينما رفض المشركون وكادت أن تقع الحرب وينقض العهد رده إليهم حتى يتم العهد قائلًا: "اصبر أبا جندل سيجعل الله لك مخرجاً". وكان المخرج حينما فر من قيده واتجه إلى جهة الساحل وانضم إليه الناقمون والمتمردون وهددوا جبهة قريش، فطالبت قريش النبي صلى الله عليه وسلم أن يضمهم إلى صفه ويعطيهم الأمن والملاذ حتى لا تحاصر قريش وتضيع مصالحها وتجاركتها.

بينما كان العقل المحاور للرسول الكريم بقدرته على الاستشعار واستكناه المستقبل مرتاحاً للحوار وثمرته الحوار مع مشركي مكة المتمثلة في المعاهدة، وأن هذا الحوار بما فيه من ندية وبما حقق من سلام فتح أبواب التاريخ للجماعة المسلمة، كان بقية الصف المسلم يحس نتيجة للحسابات الوقتية وحسابات الربح والخسارة الآنية أنهم أعطوا الدنية في دينهم ورضوا بالثمن البخس، إلا أنه نزل الوحي منتصراً لحسابات المنطق والعقل على حسابات لذة الانتصار للحظة الحاضرة، وجاء الرد الإلهي حاسماً: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}** [الفتح: ١] ١٨.

ولقد كان حوار الحديبية وما أفضي إليه من نتائج فتحة بشهادة التاريخ، وفتحة بشهادة وقائع فتح مكة بعد أقل من ثلاث سنوات. مثل حوار الحديبية انتصاراً حقيقياً ونهائياً، على حسابات العقل الجزئي القائم على إشباع غرور الانتصار للحظة العابرة، بدلا من الحسابات القائمة على ترابط القيم والأخلاق والمبادئ التي تشق طريقها حتى في الصخر والصعوبات البالغة، لتحقيق الأمن والسلام والحرية للدعوة، في إطار العيش الواحد المشترك بخصوصياته **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** [الكافرون: ٦]. وذهب حوار الحديبية في التاريخ، مثلاً، على سعة العقل واختراقه للحجب وسماحته وعدم ضيقه بالآخر.

ومن بركات الحوار مع أهل مكة ومشركيها ابتداء من حوار المقدمات بصموده وقطعياتها: "والله يا عم لو وضعوا الشمس.. إلخ"، وانتهاء بحوار الخواتيم مع ذات النفر من أهل مكة، والذين قبلوا بمحمد القائد والزعيم وأمهلهم بحواره الرائع السماح في الحديبية ليقبلوا بمحمد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم انفتحت أبواب التاريخ أمام الدعوة الإسلامية، فكان عام الوفود. ومثل عام الوفود تحولاً نوعياً في حركة

الدعوة الإسلامية، وأصبحت حركة الدعوة الإسلامية تتحرك ذاتياً. كما بدأ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في محاورة رؤساء الحكومات والملوك، حسب رسائله المختصرة التي لها وقعها، والتي مثلت مدرسة في الدبلوماسية، لأنها كانت قوية ومعبرة.

ومن هنا؛ فإن قصص الوفود وأخبارها وكيفية تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم معها من الأهمية بالمكان الكبير ١٩ وتبقى مسألة الحاجة الماسة إلى نقد تاريخي لمتون الأخبار المفصلة التي وصلتنا عن الوفود ٢٠. لقد تركت لنا تلك الأخبار والقصص منهجاً نبوياً كريماً في تعامله صلى الله عليه وسلم مع الوفود يمكننا الاستفادة من هديه صلى الله عليه وسلم في تعامله، عن طريق الحوار الهادئ الهادي الهادف، مع النفسية البشرية وتربيته ودقته وتنظيمه، ففيها ثروة هائلة من الفقه الذي يدخل في دوائر التعليم والتربية والتثقيف وبعد النظر وجمع القلوب على الغاية، وربط أفراد بأعينهم بالمركز بحيث تبقى في كل الظروف والأحوال مرتكزات قوية إلى الإسلام، إلى غير ذلك من مظاهر العظمة للعاملين في كل الحقل نفسياً واجتماعياً، واقتصادياً وإدارياً، وسياسياً وعسكرياً، تعطي لكل عامل في جانب من هذه الجوانب دروساً تكفيه وتغنيه ٢١ هذا وقد تميز العام التاسع بتوافد العرب إلى المدينة، وقد استعدت الدولة الإسلامية لاستقبالهم وتهيئة المناخ التربوي لهم، وقد تمثل هذا الاستقبال، بتهيئة مكان إقامة لهم وكانت هناك دار للضيافة ٢٢ يتزل فيها الوافدون، وهناك مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان ساحة للاستقبال، ثم كان هناك تطوع أو تكليف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد الصحابة باستضافة بعض القادمين ٢٣ واهتم صلى الله عليه وسلم بتلك الوفود وحرص على تعليمها وتربيتها، وقد كانت تلك الوفود حريصة على فهم الإسلام وتعلم شرائعه وأحكامه، وآدابه، ونظمه في الحياة، وتطبيق ما علموه تطبيقاً عملياً، جعلهم نماذج حياة لفضائله، وقد كان لكثير منهم تساؤلات عن أشياء كانت شائعة بينهم ابتغاء معرفة حلالها وحرامها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً أشد الحرص على تفقيهم في الدين، وبيان ما سألوه عنه، وكان صلى الله عليه وسلم يدي مني منهم من يعلم منه زيادة حرص على القرآن العظيم وحفظ آياته تفقهاً فيه ويقول لأصحابه: فقهوا إخوانكم ٢٤ وكان صلى الله عليه وسلم يسأل عمن يعرف من شرفائهم، فإذا رغبوا في الرحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحق،

^{١٩} - المصدر نفسه (١/٣٩٨). و ينظر: السيرة النبوية الأساس في السنة.

^{٢٠} - ينظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٥٤٤).

^{٢١} - ينظر: الأساس في السنة (٢/١٠٤).

^{٢٢} - ينظر: المدينة النبوية في فجر الإسلام والعصر الراشدي، محمد شراب (٢/٤٠٠).

^{٢٣} - ينظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع، ص ٢٢١.

^{٢٤} (انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (٤/٥٢٠).

وحثهم على الاعتصام بالصبر، ثم يجزيهم بالجوائز الحسان، ويسوي بينهم، فإذا رجعوا إلى أقوامهم رجعوا هداة دعاة مشرقة قلوبهم بنور الإيمان، يعلمونهم مما علموا، ويحدثونهم بما سمعوا، ويذكرون لهم مكارم النبي وبره وبشره واستنارة وجهه سرورا بمقدمهم عليه، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه في تأخيهم وتحاببهم، ومواساة بعضهم بعضاً ليثيروا في أنفسهم الشوق إلى لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقاء أصحابه، ويجيبوا إليهم التأسى بهم في سلوكهم ومكارم أخلاقهم ٢٥ واختارت بعض الوفود البقاء على نصرانيتها كوفود نصارى نجران ووافقت على دفع الجزية، ونحاول أن نتحدث عن بعض الوفود لما في ذلك من الفقه والدروس والعبر، كوفد عبد القيس، ووفد نصارى نجران:

أ. وفد عبد القيس:

وقد تحدث ابن عباس رضي الله عنهما عن قدومهم فقال:

إن وفد عبد القيس أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من الوفد؟» أو «من القوم؟» قالوا: ربيعة قال: «مرحبا بالقوم ٢٦ - أو بالوفد - غير خزايا ولا ندامى» ٢٧. قال: فقالوا: يا رسول الله، إنا نأتيك من شقة بعيدة ٢٨ وإن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر فصل ٢٩ نخبر به من وراءنا، ندخل به الجنة، قال: فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع، قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا حُمساً من المغنم» ونهاهم عن الدباء ٣٠ والحتتم ٣١ والمزفت ٣٢ وربما قال النقيير ٣٣ أو المقير، وقال: «احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم» ٣٤ وفي رواية: أن الأشج بن عبد القيس تخلف في الركاب حتى أناخها، وجمع متاع القوم، ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله صلى الله

(٢) المصدر نفسه، (٤/٥٢١).

^{٢٦} مرحبا بالقوم: صادفت رحبا وسعة..

^{٢٧} غير خزايا ولا ندامى: معناه لم يكن منكم تأخر عن الإسلام ولا عناد.

^{٢٨} شقة بعيدة: السفر البعيد، وقيل المسافة البعيدة.

^{٢٩} الأمر الفصل: البين الواضح الذي ينفصل به المراد.

^{٣٠} الدباء: القرع اليابس، أي الوعاء فيه.

^{٣١} الحتتم: أصح الأقوال فيها: الجرار الخضر وهي جرار كان يحمل فيها الخمر.

^{٣٢} المزفت: الأوعية التي فيها الزيت.

^{٣٣} النقيير: جذع ينقر وسطه ثم ينبذ فيها الرطب والبسر.

^{٣٤} البخاري، كتاب الإيمان رقم ٥٣.

عليه وسلم فقبلها، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «إن فيك خلتين يجبهما الله ورسوله» فقال: جبل جبلت عليه أم تخلقا مني؟ قال: «بل جبل» قال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب الله ورسوله ٣٥.

وقد انشغل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقدمهم وأخر صلاة السنة البعدية بعد الظهر وصلاتها بعد العصر ٣٦.

ب. مع وفد نجران

ومن ضمن ما وصل إلى المدينة وفد نجران من النصارى الذين وفدوا ليعارضوا ويحاجوا في أمر عيسى بن مريم عليه السلام في السنة العاشرة من الهجرة، وسمح لهم الرسول الكريم بضرب الناقوس والصلاة في المسجد النبوي حسب الرواية "إن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلوا يضربون الناقوس وصلّوا، فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله هذا في مسجداك؟ فقال: "دعوهم"، فلما فرغوا دنوا من رسول الله، فقالوا: إلى ما تدعو؟ فقال: "إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن عيسى عبد مخلوق، يأكل ويشرب ويمدح". قالوا: فمن أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "قل لهم: ما تقولون في آدم، أكان عبدا مخلوقا يأكل ويشرب ويمدح وينكح؟" فسألهم النبي فقالوا: نعم، قال: "فمن أبوه". فبهتوا فأنزل الله: **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ}** [آل عمران: ٥٩].

ولعل وقوع هذا الحوار في السنة العاشرة من الهجرة، جعل الرسول الكريم يصارح النصارى بالرؤية الإسلامية في مسألة المسيح ونفي ألوهيته مع التزام آداب الحوار.

المجتمع المدني في عهد النبوة- الخصائص والتنظيمات:

شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ دخوله المدينة يسعى لتثبيت دعائم الدولة الجديدة على قواعد متينة، وأسس راسخة، فكانت أولى خطواته المباركة الاهتمام ببناء دعائم الأمة كبناء المسجد الأعظم بالمدينة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحب في الله، وإصدار الوثيقة أو الدستور الإسلامي في المدينة الذي ينظم العلاقات بين المسلمين واليهود ومشركي المدينة، وإعداد جيش لحماية الدولة، والسعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حل مشاكل المجتمع الجديد، وتربيته على المنهج الرباني في كافة شؤون الحياة فقد استمر البناء التربوي والتعليمي، واستمر القرآن الكريم يتحدث في المدينة عن عظمة الله

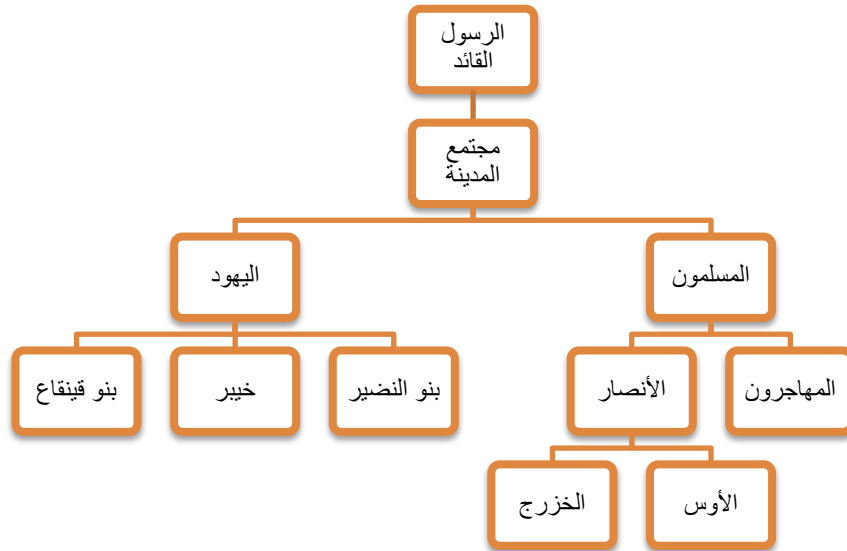
^{٣٥} انظر: صحيح السيرة النبوية، ص ٦٣١.

^{٣٦} المصدر نفسه، ص ٦٣٥.

وحقيقة الكون والترغيب في الجنة والترهيب من النار ويشرع الأحكام لتربية الأمة، ودعم مقومات الدولة التي ستحمل نشر دعوة الله بين الناس قاطبة، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مسيرة الأمة العلمية والتربوية تتطور مع تطور مراحل الدعوة وبناء المجتمع وتأسيس الدولة. وعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم الأزمة الاقتصادية بالمدينة من خلال المنهج الرباني. واستمر البناء التربوي ففرض الصيام، وفُرضت الزكاة وأخذ المجتمع يزدهر والدولة تتقوى على أسس ثابتة وقوية.

علمًا؛ بأن مجتمع المدينة كان يتكون من المسلمين من جهة واليهود بجميع أطرافهم من جهة أخرى، وهذا ما يوضحه المخطط التالي:



وهذا المجتمع يحتاج إلى جملة من الدعائم لربط أواصره، ومن أولى هذه الدعائم التي اعتمدها الرسول صلى الله عليه وسلم في برنامجه الإصلاحية، والتنظيمية للأمة وللدولة والحكم، الاستمرار في الدعوة إلى التوحيد والمنهج القرآني، وبناء المسجد، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وهي خطوة لا تقل

أهمية عن الخطوة الأولى في بناء المسجد؛ لكي يتلاحم المجتمع المسلم ويتآلف وتتضح معالم تكوينه ٣٧ الجديد.

كان مبدأ التآخي العام بين المسلمين قائماً منذ بداية الدعوة في عهدنا المكي، ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن كل ما يؤدي إلى التباغض بين المسلمين فقال صلى الله عليه وسلم: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» ٣٨.

وقال صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه ٣٩ ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ٤٠ ومن فرج عن مسلم كربة ٤١ فرج الله - عز وجل - عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» ٤٢.

وزيادة على ما سبق؛ فقد نظم النبي صلى الله عليه وسلم العلاقات بين سكان المدينة، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التاريخية واستهدف هذا الكتاب أو الصحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات، وقد سميت في المصادر القديمة بالكتاب والصحيفة، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظ الدستور.

ولقد تعرض أكرم ضياء العمري في كتابه السيرة النبوية الصحيحة لدراسة طرق ورود الوثيقة، وقال: «ترقى مجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة» ٤٣ وبين أن أسلوب الوثيقة ينم عن أصالتها «فنصوصها مكونة من كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم» ثم قل استعمالها فيما بعد حتى أصبحت معلقة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة، وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدر فرداً أو جماعة، أو تخص أحداً بالإطراء أو الذم؛ لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة» ٤٤ ثم إن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبي صلى الله عليه وسلم يعطيها توثيقاً آخر.

٣٧- ينظر: الإدارة الإسلامية في عصر عمر بن الخطاب، د. مجدلاوي، ص ٥٢، ٥٣.

٣٨- البخاري، رقم ٦٠٦٥، مسلم رقم ٢٤.

٣٩- أي لا يتركه مع من يؤذيه، ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه.

٤٠- مسند أحمد، رقم ٧٩٢٩.

٤١- كربة: أي غمة.

٤٢- البخاري، رقم ٢٤٤٢.

٤٣- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري، (٢٧٥/١).

٤٤- تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة، لصالح العلي، ص ٤، ٥.

ولذلك، فإن المتأمل بإنصاف في هذه الوثيقة، بخاصة، وفي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بعامة، ليُدرك أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله حقاً وصدقاً؛ لأنه لا يُمكن لإنسان أن يجمع في حياته وسلوكياته خلاصة الفضائل الإنسانية، وقمة الوسائل البشرية في التعامل مع الناس إلا أن يكون نبياً معصوماً يُوحى إليه.

ولهذا، فإن كل متخصص وخبير في مجاله يستطيع أن ينهل من معين حياة رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فالداعية المصلح سيجد بُغيته، والسياسي سيتعلم دروساً بليغة، والقائد العسكري سينال مطلبه، والطبيب النفسي سيتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف لا؟ وقد قال الله عز وجل: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ}** [الأحزاب: ٢١].

وكذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم أفضل من استخدام الحوار على الإطلاق؛ فهو صلى الله عليه وسلم يعلم وظيفة الحوار، وفوائده، وأساليبه، وآدابه، وفنونه، وقد مارسها صلى الله عليه وسلم على أحسن ما يكون طوال حياته مع المسلم والكافر، مع الرجل والمرأة، مع الشيخ والطفل على حدٍ سواء؛ بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخدم الحوار كوسيلة للتواصل والتراحم مع الآخرين.

لأن الحوار قيمة كبرى في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فالرسول كلُّ رسول مهمته الدعوة والتبليغ، ولن يستطيع أن يُؤدِّي تلك المهمة إلا إذا كان يُحدِّث الناس ويُحدِّثونه، ويُحاوِرهم ويُحاوِرونه: **{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ}** [المائدة: ٦٧].

إنَّ الرسول لا يصلح أن يكون انطوائياً منعزلاً لا يتحدَّث إلى الناس ولا يُحاوِرهم، فضلاً عن أن يكون شديداً غليظ الطبع؛ يقول تعالى: **{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}** [آل عمران: ١٥٩].

فمهمة تبليغ الرسالة على أكمل وجه، ومسؤولية تأليف قلوب البشر مرتبطة باعتماد الحوار وسيلة للتواصل معهم.

فهو صلى الله عليه وسلم كان رحيماً ودوداً، وكانت رحمته هي العامل المشترك الذي يتضح من خلال كل حواراته.

لقد حاور النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين والكافرين، كما بيّنا، ومع كل كانت الرحمة والرفق واللين تشعُّ في الحوار، لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يغلظ على أحدٍ، أو يُسيء إلى إنسان مهما صغرت سنُّه، أو قلَّ شأنه بين الناس.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُحاور لِيُلاطِف، أو لِيُعَلِّم وَيُري، أو ليدعو إلى الإسلام، أو لِيُفاوض، أو ليتعايش مع مَنْ حوله، وكل هذه السبل تفتقر إلى الرحمة، وصدق الله تعالى إذ يقول: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}** [الأنبياء: ١٠٧].

ومع ذلك كله يسعى كثير من المسلمين للبحث عن فنون الحوار والتواصل مع الآخرين في الكتب الغربية، وعند كتاب ومؤلفين مهما بلغت مهارتهم، فلن يبلغوا عُشر معشار ما كان لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القدرات والمهارات العالية في فن الحوار والتواصل.

إن الحوار كما رأينا كان أحد معالم منهج حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يكن حدثاً نادراً في مواقف عارضة؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ديكتاتوراً يأمر وينهر، ولا يطبق سماع رأي آخر ككثير من الناس في بيوتهم، أو الحُكام في ملكهم، بل كان صلى الله عليه وسلم كثير الحوار، محسناً الاستماع للآخرين.

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم بالحوار لكي يقطع الوقت أو ليملاً الفراغ، ولم يكن صلى الله عليه وسلم يستغل الحوار ليلج في الخصومة أو من أجل الظهور والغلبة، وإنما كان حواراً صلى الله عليه وسلم لأهداف رائعة، وكان كثيراً ما يُحقق أكثر من هدف في الحوار الواحد، أو يحقق كل تلك الأهداف مجتمعة، ومن هذه الأهداف:

فقد كان صلى الله عليه وسلم يقوم بالتعارف مع غيره عن طريق الحوار، فالتعارف هدف من الأهداف الكبرى في حياة المسلم؛ حتى إن الله عز وجل ذكره كههدف من أهداف جعله سبحانه الناس شعوباً وقبائل: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}** [الحجرات: ١٣].

وقد استخدم النبي صلى الله عليه وسلم الحوار لِيُلاطِفَ الأجواءَ بينه وبين أصحابه؛ فقد كانوا، رضي الله عنهم، يحملون له توقيراً كبيراً قد يجعلهم متحفّظين في التعامل معه صلى الله عليه وسلم بينما كان هو صلى الله عليه وسلم يريد أن يتلطف لهم ويتبسط معهم؛ ليطمئن على أحوالهم؛ فعن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة، فلما قفلنا كنا قريباً من المدينة،

تَعَجَّلْتُ عَلَى بَعِيرٍ لِي قَطُوفٍ، فَلَحِقَنِي رَاكِبٌ مِنْ خَلْفِي فَخَسَّ بَعِيرِي بَعِزَّةً كَانَتْ مَعَهُ، فَسَارَ بَعِيرِي كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَأَيْتَ مِنَ الْإِبِلِ، فَالْتَفَتَ إِذَا أَنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي حَدِيثٌ عَهْدٍ بِعُرْسٍ، قَالَ: «أَتَزَوَّجْتُ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «أَبَكْرًا أَمْ ثَبِيًّا؟» قَالَ: قُلْتُ: بَلْ ثَبِيًّا، قَالَ: «فَهَلَّا بَكْرًا تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ»، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا ذَهَبْنَا لِنَدْخُلَ، فَقَالَ: «أَمْهَلُوا حَتَّى تَدْخُلُوا لَيْلًا، أَيْ عِشَاءً؛ لِكَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ وَتَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ».

فهكذا يتدخل الرسول صلى الله عليه وسلم في أخص شؤون الصحابة الحياتية عن طريق الحوار؛ ليطمئن عليهم ويوجههم، وقد جاءت زيادة في رواية أخرى لمسلم عن جابر: قلت: يا رسول الله، إن لي أخواتٍ فحشيتُ أن تَدْخُلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُنَّ، قَالَ: "فَذَاكَ إِذَا؛ إِنَّ الْمَرْأَةَ تُنْكِحُ عَلَى دِينِهَا وَمَالِهَا وَجَمَالِهَا، فَعَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ" ٤٥.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من طبق الحوار للتعليم هو، الذي كان أحسن وأفضل مُعَلِّمٍ لِأُمَّتِهِ، بل للبشرية جميعاً؛ ومن ثم فمواقف حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بغرض تعليمهم تند عن الحصر؛ ومن هذه المواقف ما يلي:

جلس الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم مع أصحابه، فقال لهم - فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم - : «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا: المفلس فينا مَنْ لَا دَرَاهِمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» ٤٦.

ففي هذا الحديث استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم الحوار في تصحيح مفهوم لدى الصحابة، وهو معنى «الإفلاس» الذي يجمله العامة على الإفلاس المادي، وهذا ما أجاب به الصحابة على استفهام رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقالوا: «المفلس فينا مَنْ لَا دَرَاهِمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ»، وهنا يُصَوِّبُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ الْمَفْهُومَ، وَيَرْبِطُهُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْحِسَابِ الَّذِي يَجْرِي فِيهِ، وَيَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الْإِفْلَاسَ الْحَقِيقِي هُوَ أَنْ يَأْتِيَ الْعَبْدُ بِحَسَنَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَلَكِنْ يَأْتِي بِمَظَالِمٍ كَثِيرَةٍ قَدْ ارْتَكَبَهَا فِي حَقِّ الْعِبَادَةِ، فَيُعْطَى

^{٤٥} - رواه البخاري في صحيحه، ١٩٥٨/٥، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، حديث (٥٠٩٠)، ورواه الترمذي، كتاب

النكاح، باب أن المرأة تنكح المرأة على ثلاث خصال، ٣٩٦/٥، حديث (١٠٨٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

^{٤٦} - رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، ذكره الألباني في صحيح الترمذي، الرقم: ٢٤١٨.

المظلومون من حسناته حتى تفنى، فيصير مفلساً على الحقيقة، ثم يُطرح عليه من سيئاتهم، ثم يُلقى في جهنم محسوراً.

وبهذا الأسلوب الراقى غرس رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفوس أصحابه كراهية الإساءة إلى الناس؛ حتى لا تضيع حسناتهم، ويصيروا من المفلسين بمقاييس الآخرة.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يُعلم الناس الصواب بالحوار؛ يُزيل عنهم به ما يعترضهم من الشبهات؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء ناسٌ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: "وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟"، قالوا: نعم، قال: "ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ" ٤٧.

فهنا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يُهدئ من روع الصحابة الذين يأتيهم الشيطان بوساوسه حول الله عز وجل، ويبيِّن لهم أن هذا بسبب اتصافهم بالإيمان الخالص.

ومن كل ما سبق، صار هذا المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام مجتمعاً عقدياً يرتبط بالإسلام ولا يعرف المواالة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاه؛ إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح ٤٨، دون الحط من قيمة الآخر.

خاتمة:

تجلت لنا من خلال ما سبق، صورة الرسول الكريم المحاور، صورة الرسول ذي الخلق العظيم، صورة الرسول الذي يحتمل الأذى ويصبر على المكروه، صورة الرسول الذي يحب العلم والإحسان وتجويد العمل، صورة الرسول الكريم الذي يألف ويؤلف، صورة الرسول الذي وضع شرائع قبول الآخر، صورة الرسول الذي مدحه الله سبحانه وتعالى باللطف والتهذيب، ونفى عنه نقيض ذلك؛ **{وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}** [آل عمران: ١٥٩]، أي لو كنت جافاً في المعاملة والقول لا شفقة عندك لتفرقوا ونفروا، إذاً من أين جاءت الصورة النمطية المصنوفة في بعض الأذهان، والتي لا تتفق مع شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم؟!

ونلاحظ في واقعنا المعيش أن هذه الصورة غابت في شتى مظهرات السلوك الاجتماعي العربي والإسلامي، ولا أدل على غياب صورة الرسول من مجتمعنا، من أن المجتمع لا يكاد يعكس هذه

٤٧- رواه البخاري، كتاب الإيمان،

٤٨- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٥٢).

الصورة، ولا يكاد يتأسى بها وإن الأداء بعيد عن الرجاء وبعيد عن القدوة في النظافة والالتزام واللفظ والأدب والجدية والقوة والرحمة، ومع انتشار وسائل الاتصال والتواصل، فإن الفرصة متاحة لبسط صورة الرسول الرحمة؛ **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}** [الأنبياء: ١٠٧].

ولا يخفى على ذي لب أن الحوار بين البشر هو الوسيلة الأساسية للتواصل، قبل أن يكون وسيلة تعليمية، أو غيرها؛ فالإنسان كائن مجتمعي لا يعيش إلا في جماعة، ولكي يستطيع الحياة مع هذه الجماعة، ولكي يُعبر عن احتياجاته الأساسية لا بُد له من الحوار مع مَنْ حوله، فالطفل يحتاج إلى أن يطلب من والديه ما يُريد وهكذا.

وخلاصة الأمر فإن خصائص الحوار الناجح والفَعَال من خلال سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

- ١- التعبير الراقى مع انتقاء الألفاظ.
- ٢- حسن الإصغاء إلى الطرف الآخر.
- ٣- الابتسامه أثناء الحوار.
- ٤- قبول الرأي الآخر وعدم الدخول في الجدل الطويل.
- ٥- الصبر على أذى الطرف الثاني.
- ٦- رحابة الصدر وسعته وعدم إظهار الملل من كثرة سؤال الطرف الثاني.
- ٧- تقدير الحالة النفسية للطرف الآخر.
- ٨- الحرص على مساعدة الطرف الآخر ورفع همته.
- ٩- عدم إحراج الطرف الثاني، وخاصة أمام الناس.
- ١٠- التوقف عند عدم المعرفة، وعدم الفتوى بغير علم.
- ١١- تحديث الناس بما يفهمون ويستوعبون.
- ١٢- الاقتصار في الإجابة على قدر السؤال، والزيادة بحسب رغبة السائل، وأحياناً بزيادة يسيرة كهدية.
- ١٣- عدم السخرية أو الاستهزاء بالأخطاء الساذجة.

- ١٤- المدح دون كذب، والثناء دون مبالغة.
- ١٥- اللوم السريع العابر في حالة ظهور أخطاء خفيفة عند الطرف الثاني.
- ١٦- القوّة في الحق.
- ١٧- التوجيّه إلى الأهم، وعدم الخوض فيما لا يعني.
- ١٨- التشويق لإذهاب الملل ولفت الانتباه.
- ١٩- الوضوح وعدم التردّد.
- ٢٠- الصبر على جفاء الآخرين، أو عدم تقديرهم المناسب له.